العقل بوصفه مصدراً للتفسير
حجيته وحدود مساحته

The Mind as a Source of Interpretation;
Its Authenticity and the limits of its Space

م.د ساجد صباح العسكري
lect.Dr. Sajid Sabah Al Askari

العراق / جامعة الإمام الصادق/ ذي قار
قسم علوم القرآن الكريم
Imam Al-Sadiq University / Dhi Qar
Department of Holy Quran Sciences

sajediraq84@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحْث:

للعقل أهمية كبيرة في الفكر الإسلاميّ بوصفه أحد مصادر المعرفة في مجالات متعدّدة كالعقيدة والتفسير والفقه، مع وجود الاختلاف في رتبة العقل بين مصادر المعرفة الإسلاميّة والاختلاف حول مساحته في الفقه والتفسير سعةً وضيقاً، بيد أنّه لا يوجد في مدارس المسلمين من يرفض العقل مطلقاً وللعقل أهمية خاصة في التفسير كون القرآن الكريم يشتمل على معارف متعدّدة تحتاج إلى إعمال عقلٍ ونظرٍ، ودعوة القرآن للتدبّر صريحة.

ولا خلاف بين المدارس الإسلاميّة في إعمال العقل في التفسير، ولكن الخلاف رتبي من حيث تقديم بعض المدارس العقل على بقية المصادر، وتأخره عند بعضها.

ونتيجة لذلك كان العقل المصدر الأساس في أغلب التفاسير وإن اختلفت مناهج التفسير فلا يوجد منهج لا يعتمد العقل في فهم الآيات القرآنيّة سواء أكانَ منهج تفسير القرآن بالقرآن أم تفسير القرآن بالروايات أو باللغة أو غيرها.

فلا يمكن الوصول إلى تمام المراد الإلهي في تفسير جميع آيات القرآن الكريم باعتماد مصدر واحد وإلغاء بقية المصادر ولابدَّ من اعتماد جميع المصادر كالقرآن الكريم والسنة الشريفة، والعقل، للكشف عن المراد الإلهي فبعض الآيات لا سبيل لمعرفتها من خلال العقل وبعض الآيات لا سبيل لمعرفتها من إلا بتوسط العقل

وعليه لابدَّ من البحث في مفهوم العقل، وحجيته، ونطاق حدوده في تفسير النص القرآنيّ.

الكلمات المفتاحيّة: مصادر المعرفة، النص القرآنيّ، العقل، مناهج التفسير.

Abstract :

The mind has a great importance in Islamic thought as one of the sources of knowledge in various fields such as belief, interpretation, and jurisprudence, with the difference in the rank of the mind between the sources of Islamic knowledge and the difference over its space in jurisprudence and interpretation, which is broad and narrow way. However, there is no Muslim school of interpretation that refuses the mind at all because the mind gets particular importance in interpretation because the Glorious Qur'an includes multiple pieces of knowledge that require the realization of reason and consideration, besides, the Qur'an's call for pondering is explicit.

There is no disagreement among Islamic schools regarding the realization of reason in interpretation, but the dispute is hierarchical in terms of that some schools give the reason the leading over the rest of the sources, and others make it lagging behind. As a result, the mind was the main source in most of the interpretations, even if the methods of interpretation were different, for there is no method that ignores the mind in understanding the Qur'anic verses whether it is the method of interpreting the Qur'an by the Qur'an or the interpretation of the Qur'an by narrations, language, or others.

It is not possible to reach the perfectness of the divine purpose in the interpretation of all the verses of the Glorious Qur'an by adopting one source and ignoring the rest, and it is necessary to consider all sources such as the Glorious Qur'an, the honorable Sunnah, and reason in order to reveal the divine purpose because some verses cannot be understood through the mind, and some verses cannot be gotten except through the mind. Accordingly, it is necessary to study the concept of the mind, its authenticity, and the scope of its limits in the interpretation of the Qur'anic text

Keywords:sources of knowledge, Quranic text, mind, interpretation methods.

مقدمة:

للعقل أهمية كبيرة في الفكر الإسلاميّ بوصفه أحد مصادر المعرفة في مجالات متعدّدة كالعقيدة والتفسير والفقه، مع وجود الاختلاف في رتبة العقل بين مصادر المعرفة الإسلاميّة والاختلاف حول مساحته في الفقه والتفسير سعةً وضيقاً، بيد أنّه لا يوجد في مدارس المسلمين من يرفض العقل مطلقاً وللعقل أهمية خاصة في التفسير كون القرآن الكريم يشتمل على معارف متعدّدة تحتاج إلى إعمال عقلٍ ونظرٍ، ودعوة القرآن للتدبّر صريحة، ونتيجة لذلك كان العقل المصدر الأساس في أغلب التفاسير وإن اختلفت مناهج التفسير فلا يوجد منهج لا يعتمد العقل في فهم الآيات القرآنيّة سواء أكان منهج تفسير القرآن بالقرآن أم تفسير القرآن بالروايات أو باللغة أو غيرها.

وعليه لابدَّ من البحث في مفهوم العقل، وحجيته، ونطاق حدوده في تفسير النص القرآنيّ.

لذا جاء البحث الموسوم بـ(العقل بوصفه مصدراً للتفسير، حجيته وحدود مساحته) ليبحث في تحديد مفهوم العقل كمصدر من مصادر التفسير، وحجيته من خلال القرآن والسنة الشريفة، وبيان أثره ومساحته في التفسير)

فاقتضت طبيعة البحث أن يُقسم على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : إيضاح حدود التفسير بالعقل بوصفه أصلاً تفسيرياً.

المطلب الثاني: الأدلة على حجية تفسير القرآن الكريم بالعقل.

المطلب الثالث: مساحة التفسير بالعقل وحدوده.

ثم خاتمة وقائمة بالمصادر.

المطلب الأول : إيضاح حدود التفسير بالعقل بوصفه أصلاً تفسيرياً

أولاً/ مفهوم العقل

للعقل اطلاقات متعدّدة وله استعمالات في مجالاتٍ كثيرةٍ يختلف اصطلاحه بحسب المجال الذي يُستعمل فيه، ومن تلك الاصطلاحات:

١ـ العقل في اصطلاح الفلاسفة : «**جَوْهَر مُجَرّد عَن الْمَادَّة فِي ذَاته وَفعله أَي لَيْسَ بمادي وَغير مُتَعَلق وَلَيْسَ بمحتاج إِلَى الْمَادَّة فِي فعله**»[١].

والعقل بذلك أحد قوى النفس قبال قوة الخيال والوهم والحس[٢].

٢ـ العقل في اصطلاح الأصوليين : ويختصَّ عادةً بالملازمات العقلية سواء أكانت المستقلات العقلية أم غير المستقلات العقلية[٣]،كونها أموراً حقيقيةً واقعيةً يدركها العقل النظريّ[*] ولكونها من الأوليات[**] التي يكون قياسها معها، لذا عرفه الشيخ المظفر بـ «حكم العقل النظريّ بالملازمة بين الحكم الثابت شرعاً أو عقلاً وبين حكم شرعي آخر»[٤].

٣ـ العقل في اصطلاح المناطقة : ويراد به العقل الذي تدرك به الأشياء ويتميز به عن سائر البهائم[٥] وعرف بأنّه غريزة فطرية من خلالها تدرك العلوم النظرية وتدبير الصناعات[٦]

وعرف أيضاً بأنّه مبدأ العلم به يتوصل لمعرفة الأشياء من خلال التصورات والتصديقات المتحصلة بواسطته[٧].

والعقل بهذا المعنى يُعدّ أداةً من أدوات المعرفة وله دور أساس في حصول التصورات والتصديقات،وبه يعرف الحق من الباطل[٨].

وهناك إطلاقات أخرى للعقل يذكرها الدكتور أيمن المصري نحو العقل العرفي والمراد به «العقل الاستقرائي الذي يلهج به العلمانيون عادة والمعتمد على الاستقراء أو على متبنيات العرف المشهورة»[٩].

ومن الاصطلاحات الأخرى العقل التراثي ويقصد به : طريقة التفكير التي تعكس العادات والتقاليد والذي يُعرف من خلال دراسة التراث(١٠).

ثانيا/ مفهوم تفسير القرآن الكريم بالعقل:

يطلق التفسير بالعقل ويراد به أحد المفهومين أو كليهما

١ـ التفسير بالعقل الاستنتاجي : ويُقصد به استعمال أداة العقل لفهم معارف القرآن الكريم واستنباطها من مصادر التفسير كالقرآن والسنة واللغة، يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي « ليس المقصود من هذا المنهج تفسير مضامين ومعاني القرآن بالأدلة العقلية بل الاستعانة بالعقل والاستفادة من القوة العاقلة لإزاحة بعض الإبهامات الموجودة في بعض الآيات كما يتبين تفسيرها بشكلٍ أوضح(١١)، وهو ما يسمّى بالعقل المكوِّن أو المدرك(*)، الذي له القدرة على إدراك الأشياء والربط بينها والاستنتاج منها وهو بذلك يكون أعمَّ من التفسير بالعقل البرهاني ويسمّى تفسيراً اجتهادياً في مقابل التفسير النقلي.

وهو ما يسمّى بالعقل الكاشف لأن وظيفته الكشف عن المعنى من خلال الجمع بين الآيات أو الاستعانة باللغة وترجيح المعاني من خلال السياق وغيرها فتكون وظيفته مصباحية(١٢) وله استعمالات كثيرة منها(١٣):

أ/ الجمع بين الآيات التي تشترك بموضوعٍ واحد للخروج برؤية تفسيرية صحيحة.

ب/ استعمال الروايات ورفع التعارض والترجيح فيما بينها بالإفادة من علم الحديث والرجال.

ج/ الرجوع إلى اللغة وبحث المعاني القرآنيّة من خلال اللغة أولاً ثم متابعة التطور الدلالي للألفاظ.

ح/ استلهام الدروس والعبر من القصص القرآنيّ بتجريدها عن حدود الزمان والمكان.

هـ/ الإفادة من الآيات الكونية في بحث الإعجاز العلمي والكشف عن كنوز المعرفة في القرآن الكريم.

٢ـ التفسير بالعقل البرهاني:

والمقصود بالعقل البرهاني «هو العقل الخاص الذي لا يستفيد قياساته واستدلالاته إلا من القضايا العقلية سواء البديهية منها أو النظرية التي ترجع إلى البديهيات»(١٤).

فالعقل البرهاني يختصُّ بالاستدلالات العقلية البحتة ويقابل العقل بالمعنى الأعم الذي يفيد استنتاجاته من القضايا المُفادة من مختلف مصادر المعرفة سواء كانت حسية أم تجريبية أم عقلية أم نقلية.

وهو ما يسمّى بالعقل المُكوَّن أو المُدَرك(*) يعتمد على التصديقات القطعية التي تكون بديهية أو ثبتت بالقطع ويكون قياس منتج دائماً لاعتماده على مقدمات بديهية تفيد اليقين وتطابق الواقع دائماً(١٥)، فالبرهان «هو الوحيد من بين هذه الأقيسة الذي يُفيد اليقين بالمعنى الأخص أي اليقين الثابت المطلق المطابق للواقع»(١٦).

ويقصد بالتفسير بالعقل البرهاني : استنباط المعارف القرآنيّة عن طريق المبادئ التصورية والتصديقية والاستفادة من القضايا العقلية البحتة للوصول إلى النتائج، وبذلك يكون العقل مصدراً للتفسير، وليس كاشفاً فحسب(١٧).

فللعقل البرهاني عدّة وظائف منها(١٨):

أ/ الوظيفة المفتاحية : فقد يرى بعضهم أنّ دور العقل في حدود إثبات حجية القرآن كونه صادراً من الله سبحانه ثم لا يكون له دور آخر كما هو عند بعض

الإخبارية، بيد أن وظيفة القرآن المفاتحة تكون حاضرةً في تفسير كلّ آية فعند تفسير أي آية لابدَّ من استحضار مجموعة من التصورات القطعية نحو : كون الله حكيماً،وله مقصد من كلامه وأنّه أنزل القرآن بهدف الهداية ... إلخ، فهذه التصورات القطعية وغيرها، تكون بمثابة المفتاح الذي تُفهم في ضوءه تلك التصورات العقلية.

ب/ الوظيفة المصباحية : وهو كون مجموعة من التصورات توفر للمفسّر خيارات ما كانت لتتوفر لو لم تكن لديه تلك التصورات فمثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾ **[الأنبياء:٢٢]**، الآية تنطوي على قياس استثنائي وقد أضمرت مقدماته وترك للعقل مساحه ملء الفراغ بذكر المقدمات فمن ليس لديه معرفة بالقياس الاستثنائي قد لا يصل للتفسير الصحيح للآية فالعقل يكون له دور المصباح والكشف أيضاً[١٩].

ج/ الوظيفة المعيارية : وتتمثّل في كون القرآن ميزاناً لقبول المعنى التفسيري عن طريق عدم التعارض مع ضرورة العقل،فيكون العقل بمقام القرينة المتصلة فلا يكون هناك ظهور تصديقي إذا خالف المعنى التفسيري ضرورة العقل فلو كان هناك مجموعة تفسيرية تخالف ضرورة العقل لاحتمال واحد أخذ به وإذا كان الظهور القرآنيّ يخالف ضرورة العقل أول النص القرآنيّ بما لا يخالف تلك الضرورة

كما في آيات الصفات فالضرورة العقلية تقضي أنّ ليس لله سبحانه جسمًا لأنّ كلّ من له جسم يكون محدوداً بحدود الزمان والمكان ويكون محتاجاً والله سبحانه غير محدود وغير محتاج جلّ جلاله العظيم.

المطلب الثاني: الأدلة على حجية تفسير القرآن الكريم بالعقل

العقل حجة بذاته، وحجيته مستقلة ولو كان محتاجاً لغيره للزم الدور لأنّ إثبات القرآن والسنة إنّما كان بواسطة العقل والعقل الذي نقصده العقل البرهاني لاعتماده على مقدمات بديهية تفيد اليقين فيكون منتجاً دائماً ويكون إنتاجه قطعيًا.

والبحث عن حجية التفسير العقلي إنما يكون للعقل الاستنباطي الذي يشكل بمجموعة التفسير الاجتهادي عند المفسّرين الذي يكون حاضراً في جميع المناهج التفسيرية

وقد ذُكرت أدلةٌ كثيرةٌ في إثبات الحجية للتفسير الاجتهادي منها :

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

ومنها الآيات القرآنيّة الداعية للتدبّر والتعقل والتفكر في آياته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٢).

وفي الآيات المتقدّمة تصريح واضح بالإفادة من العقل في فهم كتاب الله سبحانه، فالاستفهام التقديري في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾ فيه دلالة على الأمر أي تدبّروا واستجلوا دلالات القرآن الكريم بعقولكم، والمراد بـ (لعل) في قوله تعالى ﴿... لعلكم تعقلون﴾ تعليل الهدف من نزول القرآن وهو استثمار أكبر قدر ممكن لمقاربة مراد المولى تعالى[٢٠]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (سورة النساء:٨٢)، والاستنباط لا يتحقّق إلا بالتدبّر والاجتهاد، وإعمال العقل.

وقد يشكل على أن التدبّر أمر آخر غير التفكير ولكن هذا الاشكال مردود فالتدبّر

وإنْ كان له معانٍ عدَّةٍ أحدها التفكر[٢١] بيد أنّ سياق الآيات يرجّح أن المقصود هو التفكّر والنظر والوصول إلى الحقيقة[٢٢].

وفي مقابل الحث على التدبّر والتفكر في كتاب الله هناك آيات تذم من لا يتدبّره ولا يستثمر عقله في استجلاء الدلالات القرآنيّة قال تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٢٢)، فلو لم يكن للعقل اعتبار لما توجهت الدعوة الدعوة الى ذلك.

وهناك مجموعة من الآيات القرآنيّة أرشدت إلى استعمال العقل بذكر نماذج من الاستدلال العقلي[٢٣]، وما ذلك إلا تأكيد لدعوة التدبّر القرآنّي قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٣) وهذا ما يسمّى بقياس الخلف(*)، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٧٦)

وفي ذلك استدلال عقلي على أن واجب الوجود لا يمكن أن يكون متغيّراً ومتبدلاً وهذا ما يسمّى في العقائد ببرهأن الحدوث، وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢)، وفي ذلك إشارة لبرهأن التمانع(**).

ثانياً: الأدلة من الروايات:

توجد روايات كثيرة في الحث على الاهتمام بالعقل والحث على استثماره في المعرفة بشكل عام وفي تفسير القرآن خاصة، ووصف على لسأن المعصومين بالنبي الداخلي كونه حجةً باطنةً[٢٤].

وقد افتتح الكليني كتابه الكافي لتخصيص أول باب للعقل وذكر كثيراً من الروايات الحاثة على إعمال العقل ممّا يدل على أهمية العقل عند المعصومين[٢٥].

أمّا ما يخصُّ التفسير فقد وردت بعض الروايات التي يُفاد منها حجية التفسير الاجتهادي منها ما ورد عن الرسول ﷺ في دعائه لابن عباس «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»[٢٦]، ووجه الاستدلال بهذه الرواية أنّه لو كان الطريق إلى التفسير فقط النقل فما الفائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء فالنقل متوفر لكثير غيره.

ومن الروايات أيضاً ما روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: « تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب»[٢٧].

ووجه الاستدلال بالرواية: أن التفقّه يعني الاستنباط والفهم[٢٨]، والاستنباط يحتاج إلى إعمال عقلٍ ونظرٍ في الآيات، ففي الرواية دعوة غير مباشرة للتفسير الاجتهادي

ولو رجعنا للسيرة العملية للمعصومين لوجدنا أنّها تؤكّد بشكلٍ مباشر على التفسير الاجتهادي، فتفسير القرآن بالقرآن والاستدلال باللغة وترجيح معنى في ضوء السياق ما هي إلا ممارسة للعقل، والاجتهاد بمعنى استعمال العقل كأداة للكشف عن المعنى فلو درسنا سيرة المعصوم وفقهناها بتفاصيلها لقطعنا الرأي في أن المعصوم قد حوّل التوجيهات القرآنيّة إلى واقعٍ ملموس وعلم صحابته كيفية الاجتهاد العقلي في فهم النصوص الشرعية سواء أكان ذلك في القرآن أم كان في السنة.

ثالثا: بناء العقلاء

إن طريق العقلاء لفهم كلام المتكلم هو التمسك بظاهره، وفهمه على وفق قواعد التحاور القائمة فإذا وُجد إبهامٌ في كلام المتكلم بحثوا عمَّا يرفع ذلك الإبهام سواء كان الإبهام بالجهل بمعاني المفردات، أم بسبب تردد اللفظ بين أكثر من معنى أو بسبب أن الغموض من كون الظاهر غير مراد، ففي الأولى يرجع إلى كُتب اللغة وفي

الثاني يبحث عن قرينةٍ معينة، وفي الثالث يُبحث عن قرينة صارفة وهذا لا يكون من دون استخدام أداة العقل والاستدلال وهذه السيرة كانت أحد ممارسات المفسّرين الكبار كالطوسيّ والطبرسيّ وممتدة إلى عصر المعصومين ﷺ ولم يحصل المنع عنها فيمكن التمسك بها لتأييد حجية التفسير الاجتهادي[٢٩].

رابعاً: الضرورة العقلية: التي يفرضها الإعجاز القرآنيّ، كونه صالحاً لكلّ زمانٍ ومكانٍ وكذلك الضرورة التي يفترضها العقل في حال انحصار التفسير بالمأثور الأمر الذي يتسبب في انسداد فهم كثير من الآيات القرآنيّة لقلة الروايات التفسيرية الصحيحة.

المطلب الثالث: مساحة التفسير بالعقل وحدوده:

لا خلاف بين الإمامية وغيرهم من المدارس الإسلاميّة في أهمية العقل في المعرفة ولكن الخلاف قد يكون رتبي، فالمعتزلة تُقدم العقل على المصادر المعرفية الأخرى كما يُفهم من قول القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥هـ): « يحسن التكليف السمعي بعد التكليف العقلي»[٣٠] ومن قول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في وصف القرآن الكريم إذ يقول: « القرآن هو القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد دلالة العقل[٣١].

بينما يرى الأشاعرة أن الأصول في التكليف هو الشرع وليس العقل، بيد أنّه لا مانع من الإفادة منه بوصفه أداة لفهم النصوص[٣٢]، فالخلاف رتبي وكذلك له علاقة بمساحة استعمال العقل سعةً وضيقاً، ويرى بعض الباحثين أن الخلاف لفظي فالجميع يستعملونه كقوة بينية ولكن يختلفون في استعماله كقوة تأويلية[٣٣].

وأمّا الإمامية فهم يرون أن العقل أحد المصادر المعرفية في استنباط الأحكام الشرعية وفي إثبات العقائد وفي التفسير والعقل القطعي مقدّم على النقل الظني ولا يُتصور تعارض العقل القطعي مع النقل القطعي، وهنا لابدَّ من تأويل النقل بما لا يخالف العقل القطعي[٣٤]، هذا ما عليه جمهور الإمامية، إلا أنّ هناك من الأخبارية

من يرى انحصار أبواب المعرفة على الروايات[٣٥]، وأن العقل عند بعضهم يعمل في البديهيات فقط وعند تعارضه مع النقل الظني يقدم النقل الظني[٣٦] .

ومع ذلك يبقى الخلاف بين الأصوليين وأكثر الإخباريين رتبياً، أو هو اختلاف في مساحته سعةً وضيقاً، فالأصوليون توسعوا في استعمال دليل العقل أكثر من الإخباريين، فالاختلاف بينهم في الإفادة من العقل في إثبات أصل وجود الله سبحانه وصفاته وبعثة الأنبياء وإعجاز القرآن ف كلّ ذلك يثبت بالعقل، وهذا ممّا لا خلاف عليه ويمكن الإفادة من العقل في تفسير القرآن الكريم عند الطرفين فحتى من يرى الروايات المصدر المعرفي الوحيد لا يمكن أن يستغني عن العقل سواء أكان العقل البرهاني لبديهية مقدماته التي تثبت عند الجميع، أم على مستوى استعمال العقل كأداة، فمجرد الترجيح بين الروايات هو اعمالٌ للعقل.

ويوجد نزر قليل ممّن تمسّك بالمصدر الروائي فقط ورفض أي اجتهاد في التفسير وأن التفسير لا يكون إلا بروايات المعصومين عليهم السلام، وقد تقدّم ذكر أقوالهم، ومجمل ما استدلوا به هو النهي عن تفسير القرآن بالرأي واستدلوا بالروايات القائلة إنَّ دين الله سبحانه لا يصاب بالعقول، ولا يعرف القرآن إلا من خوطب به، وغيرها من الأدلة، وقد خلطوا بين التفسير بالرأي المنهي عنه والتفسير الاجتهادي، كما أن المقصود بأنّ دين الله لا يُصاب بالعقول الاستقلال في فهم الدين وأحكامه بالعقل، وهذا ما لا يقول به أحد، نذكر دليلين :

١ـ إن حصر التفسير بالروايات ومنع التفسير الاجتهادي يعني انسداد فهم كثير من الآيات لقلة الروايات التفسيرية ولضعف كثير منها وعدم اعتبار كثير منها وهذا يتنافى مع مبدأ كون القرآن الكريم هدىً للناس، فلا تتحقّق الغاية من نزوله فضلاً عن نفي أصل التحدي وغيره من الإشكالات الأخرى، وكلّما تقدّم الزمن وابتعد

الناس عن عصر النص يزداد الغموض في الألفاظ وفي التراكيب الذي لا يكشف إلا بالاجتهاد وإعمال العقل.

٢ـ إن الاجتهاد في التفسير بالاعتماد على المصادر التفسيرية ضرورة يفرضها الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فما دام الإعجاز القرآنيّ مستمراً وله ضروبٌ متعدّدةٌ، وهذا الإعجاز لا ينكشف إلا من خلال إعمال العقل، وكما هو معلوم أن العقل في تطور دائم فإنّ قراءة النص القرآنيّ بحيثية عصرية تتناسب مع كلّ زمان، أنّ هو إلا دليلٌ قاطعٌ على أنّ إعجاز القرآن الكريم مستوعبٌ لجميع مستجدات العقل والزمان والمكان[٣٧].

فقد علمت ممّا تقدّم أنّه لا يوجد من مفسّري الإمامية من يرفض التفسير بالعقل و كلّ منهجهم في التعامل مع العقل اتخاذ منهج الاعتدال بين التعقل المفرط والتعبّد المحض، فالعقل وإن كان محور التكليف والثواب والعقاب إلا أنّه لا يستوعب كلّ تفاصيل الشريعة وأسرارها.

وبعد أن اتّضح رأي مفسري الإمامية في التفسير بالعقل لابدَّ من بيان أمرين مهمين:

١- إن مساحة العقل في التفسير لا تستوعب جميع الآيات القرآنيّة، ولا يصح الاعتماد على العقل فقط من دون الرجوع لبقية المصادر والقرائن التفسيرية، فلا يمكن للعقل أن يفسر آيات الأحكام لأنّ ملاكاتها خاصة بالمشرع فالعقول « وإن كان لها قابلية الإدراك إلا أنّه إدراك يتناول الكليات، ولا يتعدى ذلك إلى الجزئيات والفروع التي تحتاج إلى دليل نصي على إرادتها»[٣٨]، وكذلك لا مجال للعقل في تفسير الآيات الغيبية التي تحدّثت عن قضايا ميتافيزيقيا فإنّ العقل لا يمكن أن يدرك كثيراً من تلك الأمور كالبعث والمعاد والصراط وغيرها[٣٩].

وفي مقابل ذلك توجد بعض الآيات القرآنيّة التي لا يمكن تفسيرها إلا بالعقل ولا يمكن حملها على ظاهرها، لأنّ ذلك يستلزم مخالفة حكم العقل القطعي كما في

آيات الصفات التي تأول عقلاً بخلاف ظاهرها حتى لا يُنسب الجسم لله -جل عن ذلك وتعالى- .

٢ـ يجب الابتعاد عن التأويلات الرمزية المخالفة لظواهر القرآن مع إمكانية حملها على الظاهر فلا يوجد مانع عقلي من ذلك كما في تفسير الجن بالميكروب الذي يؤثر على الإنسان بطريقة غير محسوسة أو تفسير الاوتاد في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ (سورة ص:١٢) بالأهرامات[٤٠].

فلا بدّ من وجود دليل يؤيّد صحة ما ذهب إليه العقل وهذا ما أشار إليه السيد الخوئي بقوله: « فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنّه حجة من طريق العقل، أو من طريق الشرع، للنهي عن اتباع الظن، وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير إذنه»[٤١].

كما ويجب الابتعاد عن عقلية الأحكام الشرعية على ضوء مقتضيات الواقع كما في مسألة إرث المرأة وحجابها وفي حد السارق وغيرها من الأحكام[٤٢].

وممّا تقدّم يتضح أنّ للعقل دوراً مهماً ومساحةً كبيرةً في التفسير، ولا يمكن لأي مفسرٍ أن يستغني عنه مع مراعاة توظيف العقل بصورة صحيحة واعتماد المصادر التفسيرية الأخرى كالقرآن والسنة واللغة وغيرها، وعدم مخالفة أساليب التحاور عند العقلاء بتفسير الآيات بخلاف الظاهر إنْ لم يكن هناك مانع عقلي من تفسيرها، ومراعاة الضوابط التفسيرية العامة والخاصة[٤٣].

الخاتمة:

وفي ختام البحث ترشّحت بعض النتائج:

١-للتفسير بالعقل إطلاقان: الإطلاق الأول هو التفسير بالعقل الاستنتاجي والإطلاق الثاني هو التفسير البرهاني وأن التفسير بالعقل الاستنتاجي يرادف القول بالتفسير الاجتهادي.

٢-للعقل البرهاني أكثر من وظيفة، فقد تكون وظيفته مفتاحيةً أي أنّه يثبت حجية القرآن ومصدريته، وقد تكون وظيفته مصباحية، فيكون كالمصباح للمفسّر في الكشف عن مراد الله سبحانه وتعالى، وقد تكون وظيفته معيارية لتقييم ما هو الصحيح وغير الصحيح من التفاسير.

٣-ثبت من الأدلة القرآنيّة والروائية أنّ العقل حجة في التفسير بل الضرورة العقلية التي يفترضها الإعجاز القرآنيّ كونه صالحاً لكلّ زمان ومكان وانسداد فهم كثير من الآيات من دون إعمال العقل يوجب كون التفسير بالعقل ضرورةً ملحةً.

٤-لا خلاف بين المدارس الإسلاميّة في إعمال العقل في التفسير، ولكن الخلاف رتبي من حيث تقديم بعض المدارس العقل على بقية المصادر، وتأخره عند بعضها.

٥-يرى الإمامية أن العقل أحد مصادر المعرفة المهمة في التفسير، والعقل القطعي عندهم مقدم على النقل الظني، ولا يمكن أن يتصور تعارض العقل القطعي مع النقل القطعي.

٦-لا يمكن الوصول إلى تمام المراد الإلهي في تفسير جميع آيات القرآن الكريم باعتماد مصدر واحد وإلغاء بقية المصادر ولابدَّ من اعتماد جميع المصادر كالقرآن الكريم والسنة الشريفة، والعقل، للكشف عن المراد الإلهي فبعض الآيات لا سبيل لمعرفتها عن طريق العقل وبعضها الآيات لا سبيل لمعرفتها من إلا بتوسط العقل.

هوامش البحث:

١) يُنظر: دستور العلماء:٢/ ٢٣٥، ويُنظر: التعريفات، الجرجاني: ١٢٤، ويُنظر: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفيّة، جلال الدين سعيد: ٢٩٠.

٢) يُنظر: المنطق، محمد رضا المظفر: ١٢.

٣) يُنظر: موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، رفيق العجم: ٢ / ١٥٤٦.

(*) العقل النظري: "هو العقل المدرك للواقعيات التي ليس لها تأثير في مقام العمل إلّا بتوسّط مقدمة أخرى، كإدراك العقل لوجود اللهّ جلّ و علا، فإنّ هذا الإدراك لا يستتبع أثرًا عمليًا من دون توسّط مقدّمة أخرى كإدراك حقّ المولويّة و إنّ اللهّ جلّ و علا هو المولى الحقيقي بالطاعة، و حينئذ يكون إدراك العقل لوجود اللهّ جلّ و علا مستتبعاً لأثر عملي» (المعجم الشامل للمصطلحات العلمية و الدينية: ١/ ٤١٢).

(**) الأوليات: "هي قضايا يصدق بها العقل لذاتها، أي بدون سبب خارج عن ذاتها، بأن يكون تصور الطرفين مع توجه النفس إلى النسبة بينهما كافيًا في الحكم والجزم بصدق القضية، فكلما وقع للعقل أن يتصوّر حدود القضية – الطرفين – على حقيقتها وقع له التصديق بها فورا عندما يكون متوجهًا لها . وهذا مثل قولنا : (الكلّ أعظم من الجزء) و (النقيضان لا يجتمعان)» (المنطق، المظفر: ٣٢٨).

٤) أصول الفقه، محمد رضا المظفر: ٣/ ١٣٤.

٥) يُنظر: أصول التفسير والتأويل، كمال الحيدري: ١٨٧.

٦) يُنظر: العقل وفهم القرآن، الحارث المحاسبي: ٢٠٦، ويُنظر: رسائل المرتضى: ٢/ ٢٧٧.

٧) يُنظر: موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، فريد جبر وآخرون: ٥٣٦

٨) يُنظر: أصول المعرفة، أيمن المصري: ٦٩-٧٠.

٩) أصول المعرفة، أيمن المصري: ٦٩.

١٠) يُنظر المصدر نفسه.

١١) مباني تفسير القرآن، ناصر مكارم الشيرازي: ٦٥.

(*) العقل المكوِّن: " النشاط المخي الذي يقوم به الفكر بالربط و الجمع، حيث يستخرج الإنسان تصورات من ادراك العلاقات بين الأشياء» (موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، التهانوي: ١/ ١٢).

١٢) تفسير تسنيم، جوادي آملي: ١/ ٩٠.

١٣) ينظر: منطق تفسير القرآن، محمد علي رضائي: ٦٢-٦٣.

١٤) العقل ودوره في بناء العقيدة، مقال منشور على موقع مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، بتاريخ ٨ مارس ٢٠١٧م.

(*) العقل المكوَّن: هو " مجموع المبادئ و القواعد المعتمدة في التفكير أو الاستدلال. هذه القواعد تتأتّى من خارج فعل الفرد وفردية نشاط مخه» (موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، التهانوي: ١/ ١٢)

١٥) يُنظر: المنطق، محمد رضا المظفر: ٣٦١.

١٦) يُنظر: أصول المعرفة والمنهج العقلي، ايمن المصري:١٦٨.

١٧) يُنظر: تفسير تسنيم: ١/ ٩٠.

١٨) أفيد هذا المطلب من درس لأستاذنا الدكتور حيدر مصطفى هجر، أُلقي على طلبة قسم علوم القرآن في كلية الآداب جامعة ذي قار بتاريخ: ١٢/ ٣/ ٢٠١٤.

١٩) يُنظر: بحوث في منهج تفسير القرآن، محمود رجبي: ٢٩٦.

٢٠) يُنظر: مناهج تفسير النص القرآنّي، سيروانّ الجنابي: ٢٠٨-٢٠٩.

٢١) يُنظر: لسان العرب: ٤/ ٢٧٣.

٢٢) يُنظر: مجمع البيان: ٣/ ١٤١.

٢٣) يُنظر: مباني تفسير القرآن، ناصر مكارم الشيرازي: ٢٠٩-٢١١.

(*) قياس الخلف: هو الاستدلال على المطلوب بطريقة غير مباشرة بالتماس الدليل على بطلان نقيض مطلوبه ليثبت صدق مطلوبه، لأنّ النقيضين لا يجتمعان (يُنظر: المنطق المظفر: ٣٠٣).

(**) لتقرير برهان التمانع، نقول: لو أمكن وجود إلهين حصل بينهما تمانع في أمرين متضادين لاستحالة اجتماع الضدين، وإذا تحقّق أمر أحدهما وأمتنع أمر الآخر فهذا دليل على عجز الآخر وإمكانه. (يُنظر: دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنونالقاضي عبد النبي الأحمد نكري: ١/ ١٦٤).

٢٤) يُنظر: الكافي: ١/ ١٧.

٢٥) يُنظر: المصدر نفسه: كتاب العقل والجهل.

٢٦) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ٣/ ٥٣٦.

٢٧) نهج البلاغة: ١/ ٢١٦.

٢٨) لسان العرب: ١٣/ ٥٢٢.

٢٩) ينظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية: ١٢٦-١٢٧.

٣٠) متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار :١/ ٢٩.

٣١) الكشاف، الزمخشري: ٢/ ٣٤٨.
٣٢) الانصاف فيما يجب اعتقاده، الباقلاني: ١٤٤.
٣٣) يُنظر: مبادىء تفسير القرآن دراسة مقارنة، فتح الله نجارزدكان: ٢٤٥.
٣٤) يُنظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية: ١٣٦.
٣٥) يُنظر: الفوائد المدنية: ٣٥.
٣٦) يُنظر: خاتمة المستدرك، الميرزا حسين النوري: ٩/ ٣٠٨.
٣٧) ينظر: مناهج التفسير، سيروأنّ الجنابي: ٢١٣.
٣٨) مبادىء تفسير القرآن، محمد حسين الصغير: ٧٣.
٣٩) يُنظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٩٧٨.
٤٠) يُنظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي: ٢٩٣، ٦٤٠.
٤١) البيان: ٣٩٧.
٤٢) يُنظر على سبيل المثال لا الحصر: فهم الدين والواقع، يحيى محمد: ١٧٨، ويُنظر: القرآن والكتاب، محمد شحرور: ٤٥٨.
٤٣) يُنظر: المناهج التفسيرية عند الشيعة والسنة، محمد علي أسدي نسب: ٢٤٢-٢٤٣، ويُنظر أصول التفسير: محمد الفتلاوي: ١١٥-١١٦.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

*مصطفوي، محمد. ٢٠٠٩م.أساسيات المنهج والخطاب. بيروت : مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ . ط١.

*كمال الحيدري . ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م. أصول التفسير والتأويل. إيران : دار فرقد للطباعة والنشر. ط٢.

*الفتلاوي، محمد كاظم حسين . ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م. أصول التفسير: دراسة في المبادئ العامة والضوابط والقواعد. بيروت : دار حدود للنشر والتوزيع .ط١.

*المظفر، محمد رضا . ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م. أصول الفقه . بيروت – لبنأنّ : مؤسسة الأعلمي. ط٣.

*المصري، أيمن. (د.ت). أصول المعرفة والمنهج العقلي . المركز الثقافي العربيّ. (د.ط).

*الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به .. تحقيق وتعليق وتقديم: محمد زاهر بن الحسن الكوثري .مكتبة الأزهرية للتراث. ط٢.

*رجبي، محمود. ٢٠٠٧م. بحوث في منهج تفسير القرآن ترجمة: حسين صافي. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ . ط١.

*الخوئي، أبو القاسم. ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. البيان في تفسير القرآن . مؤسسة احياء آثار الإمام الخوئي (قدس) . ط٣ .

*الجرجاني، علي بن محمد. كتاب التعريفات، .دار إحياء التراث العربيّ – بيروت، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

*الآملي، عبد الله الجوادي . ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م. تفسير تسنيم تحقيق: محمد عبد المنعم الخاقاني. بيروت : دار الإسراء للنشر .ط٢.

*الذهبي، الدكتور محمد السيد حسين. (د.ت). التفسير والمفسّرون. القاهرة : مكتبة وهبة. (د.ط).

*الطبرسي، الميرزا الشيخ حسين النوري . ١٤١٥هـ. خاتمة مستدرك الوسائل تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، قم – ايران : مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث.ط/ ١.

*الرضائي، محمد علي . ١٤٢٦هـ. دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية. منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلاميّة. ط١.

*نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد. ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. دستور العلماء : جامع العلوم في اصطلاحات الفنون عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص. لبنأنّ / بيروت : دار الكتب العلمية . ط١.

*رجائي، مهدي. ١٤٠٥هـ. رسائل الشريف المرتضى. قم : دار القرآن الكريم .(د.ط).

*يحيى محمد . ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.فهم الدين والواقع . بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع . ط١.

*الأسترآبادي، محمد أمين . ١٤٢٤هـ.الفوائد

المدنية تحقيق: رحمة الله الرحمتي الأراكي. قم : مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين . ط/ ١.
*الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين . ١٤١٢ هـ. في ظلال القرآن. القاهرة : دار الشروق . ط١٧.
*شحرور، محمد. (د.ت).القرآن والكتاب. دمشق – سوريا : الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع. (د.ط).
*الكليني، محمد بن يعقوب. ١٣٦٣ش. الكافي تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. طهران : دار الكتب الإسلاميّة. ط٥.
*الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. ١٣٨٥هـ . الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . شركة ومكتبة ومطبعة المصطفى. ط١ .
*الإفريقى، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى. لسان العرب محمد بن مكرم بن على أبو الفضل. بيروت : دار صادر.
*زادكان، فتح الله نجّار. ٢٠١٨م . مبادىء تفسير القرآن دراسة مقارنة ترجمة : محمد حسين حكمت. بيروت : مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ. ط١.
*الصغير، محمد حسين. ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م. المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم . بيروت – لبنان: دار المؤرخ العربيّ . ط١ .
*الشيرازي، ناصر مكارم. ١٤٣٩هـ. مباني تفسير القرآن إعداد وتنظيم: أبو القاسم عليأن نجادي الدامغاني. مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام مكارم الشيرازي. ط١.
*الهمذاني، القاضي عبد الجبار بن أحمد. (د.ت). متشابه القرآن تحقيق: عدنانّ محمد زرزور. مكتبة دار التراث. (د.ط).
*الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. ١٤١٥هـ . تفسير مجمع البيان تحقيق وتعليق : لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين. بيروت – لبنانّ : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ط١.
*النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم. (د.ت). المستدرك على الصحيحين : تحقيق يوسف عبد الرحمن مرعشي . بيروت – لبنانّ : دار المعرفة .(د.ط).
*حسين، سرور إبراهيم. ١٤٢٩ هـ ق. المعجم الشامل للمصطلحات العلمية و الدينية. بيروت : دار الهادي . ط١.
*سعيد، جلال الدين . ٢٠٠٤م. المصطلحات والشواهد الفلسفيّة. تونس : دار الجنوب للنشر .(د.ط).
*الجنابي، سيروأنّ عبد الزهرة. ١٤٣٦هـ– ٢٠١٥م. مناهج تفسير النص القرآنيّ دراسة في النظرية والتطبيق . بيروت – لبنانّ : دار ومكتبة البصائر.ط١.
*أسدي نسب، محمد علي. ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م. المناهج التفسيرية عند الشيعة والسنة. إيران – طهران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة – المعاونية الثقافية الدراسات العلمية . ط١.

*المظفر، محمد رضا. (د . ت). المنطق. مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة. (د . ط).
*رضائي، محمد علي. ١٤٤٠هـ - ١٣٩٨ش. منطق تفسير القرآن تعريب:أحمد الأزرقي وهاشم أبو خمسين. قم – إيران : مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة والنشر. ط٧.
*الرومي، فهد. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير. ط٢.
*التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج نقل النص الفارسي إلى العربيّة: د. عبد الله الخالدي. بيروت :مكتبة لبنأن ناشرون . ط/ ١.
*العجم، رفيق. ١٩٩٨م.موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين . بيروت :مكتبة لبنأن ناشرون . ط١.
*دغيم، سميح .فريد جبر. رفيق عجم. جهامي. جيرار. موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب. مكتبة لبنأن ناشرون.
*الإمام علي (عليه السلام) . ١٤١٢هـ. نهج البلاغة شرح: محمد عبده. قم – ايران : دار الذخائر . ط١.

المحاضرات والبحوث:

*محاضرات ألقاها الدكتور حيدر مصطفى هجر على طلبة قسم علوم القرآن في كلية الآداب جامعة ذي قار بتاريخ: ١٢/ ٣/ ٢٠١٤.
*العقل ودوره في بناء العقيدة، مقال منشور على موقع مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، بتاريخ ٨ مارس ٢٠١٧م.